لا يمكن للكاتب أن يعول على كثرة القراء

منال السيد: الكتابة النسوية لم تصل بعد إلى القضايا الأساسية للمرأة

من منمنمات القصة القصيرة وشريط السينما المضيء وأبجديات الفنون البصرية المتطورة، تنسج منال السيد خيوط روايتها المختلفة، معتبرة أن هذه الرواية عملية حيوية طبيعية، ودفق موجود بذاته، وفعل ذائب في مناخه وعصره. التقت "العرب" الكاتبة المصرية في حوار حول تجربتها الإبداعية وملامح الكتابة النسوية الجديدة.

شريف الشافعي
كاتب مصري

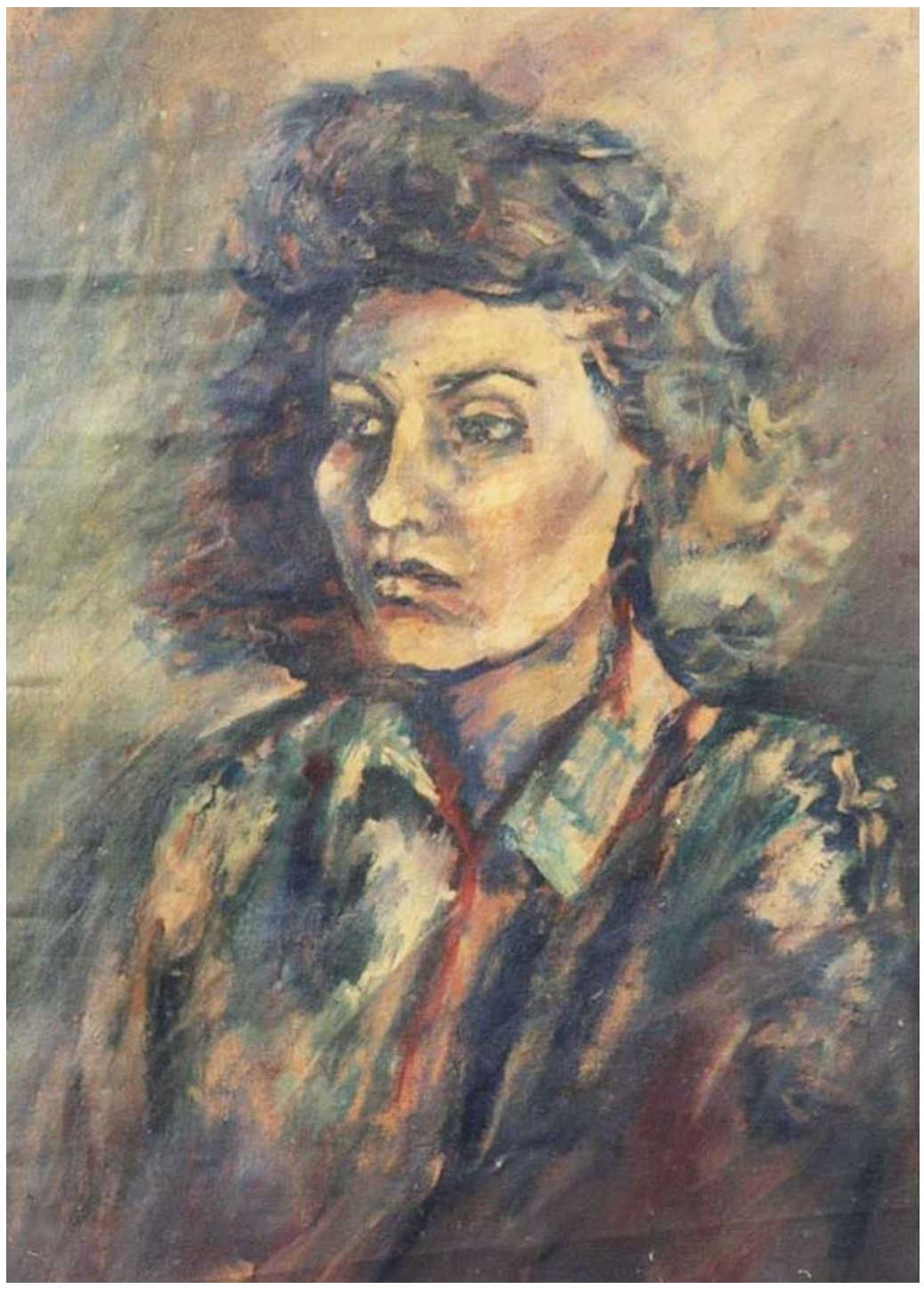

المرأة لا يزال أمامها الكثير من التحديات (لوحة للفنانة والكاتبة منال السيد)

تتمتع الكاتبة منال السيد بخصوصية في عالم السرد بين مبدعات جيل التسعينات، منبعها ولوجها فضاء الكلمة من بوابة الفنون التشكيلية وسحر الصورة؛ مجال تخصصها، إلى جانب شغفها بالسينما ومشاهدها المؤثرة، ما حوّل أعمالها الروائية والقصصية إلى كادرات ولقطات منتزعة من نبض البشر وحركة الحياة وجنون الفانتازيا.

تتأنى السيد كثيرا قبل إقدامها على إصدار مجموعة قصصية أو رواية جديدة، لإيمانها بأن الكيف الأهم والأبقى، فمعيار صلاحية الإبداع هو الأثر الذي يتركه، والإضافة على الركام السابق.

وتنتظر منال إصدار روايتها "بنات الملح" خلال فترة وشيكة، لتواصل بها رحلة إبداعها التي شهدت من قبل رواية "غنا المجاذيب" والمجموعات القصصية "الذي فوق"، "أحلى البنات تقريبا" و"دوقة البلاد"، وهي وإن كان إنتاجها قليلا، إلا أنها أحدثت صدى في حركة الكتابة النسائية بمصر، لما فيها من توتر وزخم ومصداقية وقدرة على التعاطي اللاذع مع أوجاع الواقع وأزمات المجتمع، من خلال تصوير تفصيلي تشريحي لنماذج وشخصيات منتقاة بعناية.

ديكور خاص

تقول في حديثها لـ"العرب" إنها "تخيلت أن لكل ذات ديكورها الخاص، فلا وجود للخرائط، بل هي مزحة مكشوفة، وأننا إذا تمكنا من العودة في رمشة عين إلى الشارع ذاته الذي مررنا منه، فلن نجد البنايات، فقط يعتمد ذلك على سرعة البديهة لكشف خدعة الوجود".

من منصة الحرية انطلقت مع رفيقات جيلها، وكانت ثورة 25 يناير 2011 منعطفا لتثوير هذه الكتابة النسوية، ودفعها إلى مزيد من التمرد على الأطر وخلخلة المفاهيم المستقرة وزعزعة القوانين والثوابت والفكاك من القيود البالية، السياسية والاجتماعية والجمالية.

وترى أن ثورات الربيع العربي لها انعكاسات داخل العمل الإبداعي ذاته، من حيث قدرته على كسر القوالب والتجديد. وهذه الثورات، شأنها شأن الجراحات المهمة الدقيقة، لا يمكن عمل أي شيء حيالها سوى المشاركة فيها، فلا يمكن مقاربتها إبداعيًا لا في أثناء الجراحة ولا خلال فترة نقاهتها، لكن بعد مرور الوقت الكافي تصير الأمور أوضح، ويتم التخلص من وجع لا تصلح معه العقاقير.

وتستطرد الكاتبة "نحن الآن في فترة النقاهة، وربما استكمال الجراحة ذاتها، وقد تجاوزتنا الثورات بعنف. تجاوزت أقلامنا وأفكارنا، وهزت ما تبقى فينا من سكون، ويجب علينا أن نحترم مرور قطار سريع أمامنا، فلندعه يمر بالكامل، ثم يعبر دخانه، ومن بعدها نمشي ونتقدم".

تفخر منال السيد بأنها جزء من تجربة الرواية العربية الحديثة، بغض النظر عن المسميات والتصنيفات، وترى أن ملامح كتابة المرأة الحديثة ليست بمعزل موضوعي عن كتابة الرجل، وإن كانت كتابة التفاصيل حكرا مميزا لدى المرأة المبدعة، وعلى الرغم من ذلك فإن الكتابة النسوية لم تصل بعد إلى قضايا المرأة الأساسية "ربما لاقتصار الكثير من الكتابات على الوجع الخاص، وربما لاضطراب المشهد الحياتي في السنوات الأخيرة، مما جعل الإبداع يقترب من التوتر أيضا"، وتبقى محاولات الاقتراب من طبقات المرأة العميقة "مجرد تجارب متشخصنة ومرتبطة بحياة ومحيط الكاتبة فقط".

منذ سن صغيرة بدأتْ منال السيد محاولات الكتابة، وكلما كبرت زاد التصاقها بـ"بطلة العرض"، بما تراه بوعيها وألمها، وفي رسمها الشخوص كانت دائما تعتقد أن هناك شيئا ناقصا، قد يكون خطًا أو تفصيلة "في كل مرة، منذ بدأت وحتى الآن، لم يكن يعنيني مَن الذي يتلقى، ليس لاستهانة به، بل لوجود مندوب عنه بداخلي يقتصّ مني كلما صنعتُ فنًا رديئا".

وتقول في البداية كانت القصة "تلك الرجفة التي تمر على الروح كشبح معذب، ينخل الروح، ولا يرتاح حتى أدون أطياف الشبح"، اللقطة، الصورة، الألم العابر مثل ضوء. وتحكي السيد "في دراسة الفنون التشكيلية نعرف جيدا قيمة متابعة الوهج، وأن لكل دقيقة وهجها، كنا نلاحق الشمس وتدربنا سنوات على الإمساك بذروة الجمال، وهو يمر، ويكون علينا أن نسجله وأحيانا نضعه في براد الروح، كي لا يفسد، ونعيد تدوينه".

بعد تجاهل فكرة كتابة عمل روائي لفترة تجاوزت عشر سنوات، والهروب منها بوصفها جبًا، انتقلت منال السيد إلى الرواية من بوابة السينما "كنت أتصور أن العمل الروائي هو كون جديد، يوجده المبدع من نسيج روحه، ويجب أن يكون شيئا فريدا وغنيًا، كما السينما. كلما كانت السينما التي نراها غنية وأصيلة وحقيقية وأيضا خيالية، كلما كانت دنيا متكاملة، وتستحق لقب سينما، هكذا دخلتُ بروحي عالم الرواية، متذكرة في 'غنا المجاذيب' شاشة الأبيض والأسود، ذلك السحر الذي كان يحلق بي فأنسى العالم".

منمنمات القصة

ضمت في روايتها الواقع والخيال السينمائي في آن، مستعيدة شخصيات ومشاهد أفلام تتضمن ابتسامة شادية، ورقة فاتن حمامة، وتحليق سامية جمال، تقول السيد "أخذتني السينما، التي ذبت في محبتها، من يدي، وأدخلتني عالم الرواية. حاولت عمل تركيبة لا اسم لها من منمنمات القصة القصيرة، التي كنت ومازلت ممسوسة بها، ولقطات السينما، وعيون الأبطال القدامى، بالإضافة إلى حالة شجن حقيقية وخاصة ومرتبطة بمكان حرمت العيش فيه لبضع سنوات، كنت أذوب من فرط الحنين إلى العودة إليه، فترة الحنين هذه أنتجت غنا المجاذيب، في محبة حدائق القبة".

> ثورات الربيع العربي لها انعكاسات داخل العمل الإبداعي ذاته، من حيث قدرته على كسر القوالب والتجديد

في "غنا المجاذيب"، تماهت الكاتبة مع راوية الأحداث، ومع شخصيات المنطقة التي تزيد على عشرين، فجاء العمل مزيجا بين السيرة الذاتية والتخييل، وتقول منال السيد في حديثها إلى "العرب": "لم أتحد مع شخوص الرواية، فقد ذابت جميعا، ولم يعد للرواية وجود حقيقي، فقط صارت قطعة من القماش تلتقف الألوان من حولها وتلتقف الألم، لم تكن لها حكاية ولا قلب ولا حيز، فقط صارت هي الآخرين".

وتنخرط في ما يمكن تسميته الهامش المجتمعي، وعالم البسطاء والعاديين، باحثة طيلة الوقت عن تدليل ذاتها، ومحاولة ترميمها "لا علاقة لي بما يسمى بإغواءات الأضواء، ليس لأي شيء، سوى أنها لا تشعرني بالسعادة. أنتقي كل ما يجعلني سعيدة، حتى لو كان غارقا في الزهد أو الاعتياد".

هذه الرؤية، تتسق مع نظرتها إلى فن الرواية، كعملية حيوية طبيعية، ودفق موجود بذاته، وترى أن منجزات العصر الحديث من شأنها بدورها الانصهار في مكونات الرواية، وتقول موضحة "الرواية فعل ذائب في مناخه وعصره، ودخول وسائل الاتصال الحديثة مثلا وأبجديات العصر شيء طبيعي لا يمكن تجاهله.

لا تعول منال السيد على معدلات القراءة ولا مؤشرات البيع "البيست سليرز" كمعيار لتقييم تفوق العمل الروائي ونضجه، حيث إن الأعمال الراسخة والمؤثرة إنسانيًا مثل أعمال شكسبير ودانتي وجوركي وديستوفيسكي ونجيب محفوظ وعلاء الديب وأصلان وعبدالحكيم قاسم وغيرهم لا يوجد ما يشير إلى أنها قد قلبت الدنيا حين ظهرت أو تقاتل الناس لشرائها، لكنها جذبت قارئها عبر العصور.

وتضيف "لا يمكن التعويل على كثرة القرّاء لعمل ما قد يكون فقيرا، ولا الاطمئنان لأي ضجيج خارج العمل الإبداعي، وليس من داخله".

البؤس الفلسفي في العالم العربي

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

نعلم أن العرب فاخروا ولا يزالون يفاخرون بأن لهم فضلا كبيرا على الغرب لأنهم نقلوا إليه أصول الفلسفة اليونانية، وعرّفوا برمزها الكبير أرسطو في فترة نهوضه وخروجه من عصور الظلمات والانحطاط. وهذه حقيقة لا يمكن التشكيك فيها أو نكرانها.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو التالي: لماذا استفاد الغربيون من المجهود الكبير الذي بذله العرب بهدف إحياء الفلسفة اليونانية، في حين لم يجنوا هم من ذلك ما يمكن أن يساعدهم على تطوير الفكر الفلسفي، وترسيخه في تراثهم وفي ثقافتهم وفي مناهجهم التربوية؟

الأسباب مختلفة ومتعددة، لكن ما يتوجب قوله هو أن محاربة الفلسفة وتهميشها وإهمالها وكل هذا لا يعود إلى الحكام العرب الذين كانوا يضيقون بكل ما يخلخل اليقينيات والمسلمات، ويهدد نفوذهم وسلطتهم القائمة على الطغيان والاستبداد، وإنما يعود أيضا إلى الفقهاء والبعض من المفكرين. فقد تصدى الإمام الغزالي لفلاسفة عصره، ونعتهم بـ"الضالين" وبـ"المتهافتين".

وانتقد تقي الدين بن تيمية بشدة ابن رشد وابن سينا وكل من كان يظهر ميلا إلى الفلسفة اليونانية، بل ذهب به التشدد إلى حد تكفير هؤلاء لأنهم تجرأوا على "المس من المقدس"، والتشكيك في مصادره وفي أصوله. حتى ابن خلدون المشهود له بالرصانة والتعقل لم يرحم الفلاسفة لأنهم يعتمدون بحسب رأيه على "المجردات" وليس على "المحسوسات، لذلك لم يتردد في وصفهم بـ"منتحلي العلوم".

وفي فترة النهضة التي برزت للوجود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واستمرت حتى العقود الأولى من القرن الماضي، سعى بعض المفكرين العرب إلى إحياء الفكر الفلسفي. وفي كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، طالب د.طه حسن بضرورة تشريك العرب في الإرث الفلسفي اليوناني، إلاّ أن رجال الدين تصدوا له وحاكموه قضائيا. وهذا ما فعلوه مع جميع من نحوا منحاه.

وخلال العقود الأخيرة من القرن الماضي، كثر الحديث عن ضرورة بعث حركة تعيد إحياء المشروع الفلسفي التنويري الذي جاءت به حركة النهضة. وتكون هذه الحركة قادرة على مواجهة التيّار السلفي الذي اكتسح العالم العربي وتغلغل في الأوساط الشعبية، وأيضا في النقابات المهنية وفي الجمعيّات والنوادي الثقافية والرياضيّة.

وبالفعل برز في هذا البلد العربي أو ذاك مثقفون متحمّسون لهذا المشروع التنويري الجديد. وقد سعى هؤلاء جاهدين لفرض وجودهم خصوصا بعد أن استفحلت ظاهرة العنف الأصولي، وغدت تهدّد لا العالم العربي والإسلامي فقط، وإنما العالم برمّته، منذرة بتقويض كلّ ما يمكن أن يساعد الثقافة العربية على الخروج من حالة الانغلاق والتزمت التي أصبحت تعيشها منذ فشل المشروع التنويري، غير أن تلك الجهود فشلت فشلا ذريعا. إذ ظلّ من أصبحوا يسمّون بـ"التنويريين الجدد" فئة معزولة عن الواقع والمجتمع، وظلّت أفكارهم وأطروحاتهم منحصرة داخل دوائر مغلقة.

بالإضافة إلى كل هذا، لم يتسلح هؤلاء بالشجاعة التي تحتمها المعركة الفكرية ضد الظلامية والتزمت. لذلك لم يجرؤوا على خلخلة أسس الفكر الأصولي ودحض بطلانه وفضح تضليله للناس.

ولعل التهديدات التي يطلقها المتطرفون والمتشددون ضدّ كلّ من ينتقدهم، هي التي تقف حائلا دون ذلك، ولكن علينا أن ندرك أن هذا الفكر الأصولي المتغلغل في المجتمعات العربية منذ عصور الانحطاط، والذي ازداد عنفا وانتشارا في الزمن الراهن، لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تخفّ حدته، وتتقلص تأثيراته الخطيرة إلا بالنقد الجذري له، وبتعرية خوائه، وانقطاعه المطلق عن الواقع، وعن حضارة العصر ومقتضياته. وكل هذا يتطلب من النخب العربية الشجاعة والإرادة الحازمة والتضحية تماما مثلما كان حال النخب الأوروبية في معركتها ضدّ الفكر الأصولي والظلامي.

> الحداثة «داهمت» المجتمعات العربية لا لتحررها من ماضيها، وإنما لكي تصبح ذريعة للعودة إليه والنبش في قبوره

وفي غياب خطاب فكري وفلسفي يقرأ الواقع في تفاصيله، لم تجد الجماهير العريضة غذاء ثقافيا وفكريا يحميها من شرّ الخطاب الرسمي المحنّط الذي تجلده به الأنظمة المستبدة يوميًا غير الخطاب المحنّط الآخر الذي يروّجه الأصوليون والسلفيّون الذين تكاثروا بسبب ما يمكن أن نسميّه بـ"الجهل المعمّم".

الجانب الآخر الذي انجر عن بؤس التفكير الفلسفي هو أن الحداثة لم تتمكن رغم الجهود الكبيرة التي بذلت من أن تتجذّرَ في المجتمعات العربية ويعود ذلك إلى هيمنة الدين في نزعته الأصولية والسلفية على الحياة الاجتماعية والثقافية. وهي هيمنة تكاد تكون في غالب الأحيان مطلقة بحيث لا تترك المجال لأي فكر آخر بأن يشهد الانتشار والرواج. ثم أن هذه الحداثة "داهمت" بحسب تعبير المفكر المغربي الدكتور محمد سبيلا المجتمعات العربية لا لتحررها من ماضيها، وإنما لكي تصبح ذريعة للعودة إليه، والنبش في قبوره المظلمة بحثا عن المزيد من الأوهام والخرافات والأباطيل.

الغزالي ومن بعده حاربوا الفلسفة